الفصل الثالث

موقع إيران في الشرق الأوسط الكبير

تستند توجهات الدولة الخارجية إلى العديد من العوامل والتفاعلات التاريخية. تعد السمات الثقافية، والطموحات الأيديولوجية، والضغوط الديموغرافية، والقناعات الدينية حاسمة في تحديد نظرة أي من البلدان إلى بيئته وموقعه ضمن جيرانه. لا تشكل إيران استثناء لذلك، بالنظر إلى إسهام تاريخها الوطني المتميز وتراثها الإسلامي في تحديد مقاربتها فيما يتعلق بالشرق الأوسط الكبير.

تحولت إيران، كمعظم الدول الثورية، من لاعب متشدد يتحدى المعايير الإقليمية، إلى دولة براغماتية تنتهج سياسة قائمة على حسابات المصالح القومية. نبذت إيران، خلال ثمانينيات القرن المنصرم، بقيادة آية الله الخميني المتشددة، مفهوم الشرق الأوسط، ساعية إلى تقويض النظام القائم باسم نصرة الإسلام. كافح خلفاء الخميني بوجود ذلك الإرث، بينما سعوا إلى دمج الثيوقراطية ضمن المجتمع الدولي. التمس رؤساء إيران ـ بدءًا من رفسنجاني، مرورًا بخاتمي، وصولاً إلى أحمدي نجاد ـ تحقيق المستحيل، عبر العمل على موازنة رؤية الخميني مع متطلبات المجتمع الدولي.

لا يمكن فهم سياسة إيران الإقليمية على الوجه الأمثل إلا عبر النظر إلى ثلاثة محاور: الخليج العربي، والمشرق العربي، وأوراسيا. يمثل الخليج

العربي الأهمية الكبرى، بما يفوق المشرق العربي وآسيا الوسطى. يتمثل الجانب المثير، فيما يتعلق بتحديد سياسة طهران تجاه تلك المحاور، في سير الأيديولوجية والمصالح القومية جنبًا إلى جنب. نظر السعوديون، إلى إيران بوصفها خطرًا أصوليًا داهمًا، في ثمانينيات القرن المنصرم، بينما أشاد الدبلوماسيون الروس، بالقناعة ذاتها، ببراغماتية طهران واعتدالها.

أدت الجغرافيا والمصالح المتضاربة دورًا مهمًا في إضفاء الاعتدال على توجهات إيران الأيديولوجية. أدركت الثيوقراطية، في نهاية المطاف، الحاجة إلى استقرار الخليج العربي، بالنظر إلى أن نفط إيران يصدر بكم هائل عبر تلك المنطقة الحيوية. توقفت الحملات الأيديولوجية المقدسة والهجمات الإرهابية ضد دول الخليج، وقبلت إيران الوضع القائم هناك. أدرك النظام الثيوقراطي، بصورة مماثلة، عبثية مناصبة جاره الروسي القوي العداء، ولم يعمل على إثارة المشاعر الدينية في جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق. امتلكت إيران حافزًا أكبر لانتهاج سياسة الاعتدال، بالنظر إلى تطوير البلدين علاقات اقتصادية وإستراتيجية. اتسمت تصرفات طهران، مع ذلك، بالحماسة في علاقاتها مع المشرق العربي الأكثر بعدًا ـ الذي لم يقاسمها الحدود، أو مشروعاته التجارية المربحة ـ وسمحت لعدائها مع إسرائيل بالتأثير في إستراتيجيتها. تظل الحقيقة متمثلة في عدم تعارض موقف إيران المغرق في أيديولوجيته تجاه تلك المنطقة مع مصالحها الحيوية المؤثرة، وهو ما قلل من حاجتها إلى تبني الحذر، واتباع سياسة أكثر براغماتية.

أذهلت السياسات والأولويات المحيرة تلك المجتمع الدولي في الكثير من الأحيان، وجعلت من سياسة إيران الخارجية أمرًا عصيًا على الفهم. يمكن

للمرء أن يدرك بصورة أفضل، عبر وضع تقييم أكثر تفصيلاً لتطور سياسة إيران الإقليمية، ما دفع دولة رجال الدين لاتخاذ ما اتخذته من قرارات، وما ستتبعه من توجهات مستقبلية، على الأرجح، استنادًا إلى ذلك.

مقومات السلوك الإيراني

رأت إيران في نفسها على الدوام، أكثر من أي بلد آخر، المهيمن الطبيعي على جيرانه. يتحلى الإيرانيون، عبر الأجيال، بحس متفرد بتاريخهم، وعظمة حضارتهم، وقوة ما توالى على حكم بلادهم من إمبراطوريات ملأت الدنيا وشغلت الناس. مثلت الإمبراطورية الأخمينية في القرن السادس قبل الميلاد، استنادًا إلى ما سبق، أولى القوى العظمى، حيث بسطت سيطرتها على أراضٍ امتدت من اليونان إلى الهند. قامت السلالات الفارسية الحاكمة القبلة، من الساسانيين والصفويين، بالتوسع الإمبراطوري ذاته، بينما تمكنت، بما لا يخلو من تعقيد، من إدارة مناطق شاسعة. يعبر حس الفوقية تجاه الجيران، من العرب الدهماء، والأتراك البسطاء، عن جوهر الكوزمولوجيا الفارسية. تقلصت الإمبراطورية على مر القرون، وتلاشت الثقافة الفارسية بحلول التقاليد الغربية الأكثر إغراء، دون أن يؤثر ذلك في حس تقدير الذات، والنظرة المبالغة إلى إيران. يؤمن الإيرانيون، بالنظر إلى تاريخهم وعظمة حضارتهم، بوجوب امتلاك بلدهم الريادة الإقليمية.

تقترن مشاعر الافتخار القومية الإيرانية، مع ذلك، بحس من انعدام الأمن نتيجة الغزو المتواصل من قبل القوى المعادية. اعترى الإيرانيين الكثير من الشك في نوايا جيرانهم ودوافعهم، بالنظر إلى ما تعرضوا له

مـن غزوات مذلة من قبل المغول. لم تتمكـن الكثير من الأمم من الحفاظ علـى تميزها الثقافي، واسـتيعاب تأثـير غزاتها، كما فعـل الفرس. هيمن الباحثون، والكتاب، والبيروقراطيون الفرس، بعد مضـي مدة من الزمن، علـى بلاط الممالك العربية، ناهيك عن تحديـد توجهاتها الثقافية. تركت تلك الغزوات القاسـية، ومـا أعقبها من فترات احتـلال طويلة، مع ذلك، أثرًا لا ينسـى لدى الإيرانيين، مما دفعهم إلى الشعور بالفوقية، والشك في جيرانهم على حد سواء.

مثلـت القوى الغربية، إلى حـد كبير، أكثر من هدد إيـران من غزاتها الإمبرياليـين. لم يكـن بالإمكان اسـتيعاب تلك القوى، علـى النقيض من العـرب، ناهيك عن عـدم تسـليمها بـإدارة الفرس بلادهم بالضـرورة. أصـبحت إيران ضـحية أخـرى، إبان فـترة التنافس البريطاني الروسـي للهيمنة على آسـيا الوسـطى، ناهيك عن الحرب البـاردة «الطاحنة» بين الأمريكيـين والسـوفييت. هيمنت القوى الإمبريالية علـى إيران، وانتهكت سـيادتها، بالرغم من عدم اسـتعمارها بشكل رسـمي كالهند، أو خوضها كفاحًـا تحرريًـا مؤثـرًا كمـا في الجزائر. كمنـت القـوى الخارجية خلف كل ممـن حكمـوا البـلاد، وكان بمقدورهـا تمكـين الجالس علـى العرش الطاوسـي، أو إذلالـه بما لا يذكر من عنـاء. دارت النقاشـات والمداولات بين الملوك وبرلماناتهم، ولكن جميع السياسيين الإيرانيين منحوا الأفضلية لسـادة اللعبة الإمبرياليـة. حظي ملوك إيـران، في بعض الأحيان، بقدر من الاسـتقلالية عبر اللعب على تناقضـات القوى العظمى، ولكن ذلك لم يكـن ليحدث على الـدوام، بالنظر إلى إيثارهم السـلامة عبر التوافق مع تلك القوى. يمكن فهم تشـدد الجمهورية الإسلامية وارتيابها من المجتمع

الدولي بشكل أفضل ضمن السياق التاريخي لخضوع إيران والتلاعب بها من قبل القوى الخارجية.

لا يمكن، بأي حال من الأحوال، عزو سياسة إيران الخارجية بالمطلق إلى حسها القومي ومظالمها التاريخية؛ لأن من شأن ذلك تجاهل الأسس العقديّة للنظام الثيوقراطي. أورث الخميني خلفاءه أيديولوجية تتمحور في جلها حول الصراع بين المضطهِدين والمضطهَدين. ولدت تلك النظرة من رحم تقاليد الشيعة السياسية، بوصفهم طائفة أقلية تكافح الحكام العرب السنيين، يمثل مفهوما الطغيان والمعاناة رمزين مؤثرين، ناهيك عن أهميتهما من الناحية العملية. لم تكن إيران دولة تسعى لنيل السيادة والاستقلال ضمن النظام الدولي القائم فحسب. مثلت الثورة الإسلامية صراعاً بين الخير والشر، معركة لنصرة الأخلاق وتكريس التحرر من التأثيرات الثقافية والسياسية للغرب الظالم الكافر. تعززت أيديولوجية الخميني والطموحات القومية الإيرانية، لتنتج حالة شعبية ثورية فرضت نفسها على واقع المنطقة[1].

يخفي خطاب الجمهورية الإسلامية التحريضي، وطموحها الإقليمي الحقيقة المتمثلة في عزلتها الإستراتيجية. تمثل إيران، في نهاية المطاف، دولة فارسية مطوقة بقوى غير فارسية، تحرمها من التواصل الإثني، والانخراط في العلاقات السائدة في العالم العربي. إن قامت تحالفات متينة على رؤية موحدة وقيم مشتركة، فسيقدر لإيران، بصورة أو بأخرى، البقاء في عزلة عن محيطها. لم يقلل الدين من عزلة إيران بالضرورة، حتى بروز كتلة شيعية في العراق. تعامل العرب السنة بحذر تاريخي مع الشيعة المضطهَدين، إخوتهم في الدين، واعترتهم الكثير من الشكوك

فيما يتعلق بهم. حاولت إيران توظيف عزلتها، فيما يندرج ضمن نطاق التبرير الذاتي الفارسي النموذجي، بالنظر إلى ما لقيه مفهوما الاكتفاء الذاتي والاعتماد على النفس من صدى لدى الجماهير المعزولة. لا يرى حكام إيران، مع ذلك، في معظم الأوقات، حين يستشرفون الآفاق، ما يثير الاطمئنان من المشاهد السياسية في المنطقة، أو التحالفات الجاهزة.

تمثل إيران بلد التناقضات والمفارقات: النظرة المهيبة إلى الذات وعدم الشعور بالأمن، والسعي إلى زعامة المنطقة والارتياب من الجوار وازدرائه، الخطاب العقديّ الثوري وعمليّة السلوك، إن لم نقل واقعيته. ميز التناقض الدائم بين الطموحات والإمكانات، الهيمنة والبراغماتية، مقاربة إيران المتشنجة فيما يتعلق بالشرق الأوسط الكبير.

المحور الأول: الخليج العربي

مثل الخليج العربي على الدوام أولوية إيران الإستراتيجية الأولى، بالرغم من دعاوى الملالي الإسلامية الكونية المعلنة. يشكل المجرى المائي المهم طريق إيران المباشرة إلى الأسواق العالمية للبترول، عصب حياتها الاقتصادية. يجدر بنا الإشارة هنا، بالرغم من إثارة موضوع العراق لاحقًا، إلى أن اهتمامات طهران وطموحاتها في الخليج تتجاوز ذلك البلد. يرى حكام الجمهورية الإسلامية، كمن سبقهم من الملوك الذين تعاقبوا على حكمها كافة، أن إيران جديرة بالهيمنة على المنطقة بالنظر إلى حجمها وموروثها التاريخي. تبرز الأبعاد المتغيرة لسياسة إيران الخارجية بأكثر الأشكال وضوحًا في تلك المنطقة، بينما تتراجع الراديكالية الثورية بشكل تدريجي لحساب السياسة البراغماتية.

دعا الخميني دول الخليج، عقب توليه السلطة بوقت قصير، لمحاكاة نموذج إيران الثوري، وقطع العلاقات مع «الشيطان الأكبر»، الولايات المتحدة (...).

أعلنت الدولة الثيوقراطية بوضوح الملكية رمزًا للقمع والطغيان. تحدث الخميني ذاته، بهذا الصدد، قائلاً: «تمثل الملكية أحد أكثر المظاهر الرجعية المخزية والشائنة»[2]. لن يسود المجتمع الإسلامي الأصيل تحت راية الملكية، بالنظر إلى أن النخبة الحاكمة الحقيقية تتمثل في رجال الله الصالحين. عارض حكام إيران الجدد، من ثم طبيعة الأنظمة الخليجية، بما يتجاوز نطاق سياساتها الخارجية[3].

أصبحت المملكة العربية السعودية هدفًا للهجمات الحاقدة، بينما اتخذت إيران من العداء والراديكالية منهجًا لها. امتلك البلدان، بصورة أو بأخرى، الكثير من العوامل المشتركة، بالنظر إلى استناد شرعيتهما إلى المهمة الكونية المتمثلة في نشر الإسلام والدفاع عنه. وفرت المنافسة الطبيعية، الناتجة عن اختلاف تأويلي البلدين للإسلام، الأرضية لتوتر العلاقات بينهما، ناهيك عن العلاقات السعودية الأمريكية الوثيقة (...).

لم تبؤ جهود طهران الهدامة بالفشل، حيث عمت التظاهرات، في أوائل ثمانينيات القرن المنصرم، كلاً من الكويت، والسعودية، والبحرين. لم تلقَ رسالة إيران الثورية القبول في نهاية المطاف، مع ذلك، إلا لدى فئة صغيرة من الأقليات الشيعية. لم تقم المظاهرات الشيعية المتفرقة، علاوة على ذلك، لمحاكاة ثورة إيران، بل للتعبير بالأحرى عن حرمان الشيعة الاقتصادي

والسياسي في تلك البلدان. اتخذ المتظاهرون من التهديد الإيراني فزاعة لتحقيق مطالبهم، وانتزاع حقوقهم من النخبة الحاكمة. أدركت الأنظمة الحاكمة ذلك بدورها، كما بدت الحال عليه، واستجابت، بعد إخماد تلك المظاهرات بالقوة، لبعض المطالب الاقتصادية بغية استعادة الهدوء. أنهت تلك الإستراتيجية، بشكل رئيس، محاولة إيران لاستغلال مظالم الشيعة بغية إقامة نظام جديد. لجأت طهران، فيما بعد، إلى العنف والإرهاب، وقد أدى ذلك إلى تنفير السكان المحليين.

نُسبت حملة من التفجيرات، واستهداف السفارات، والمعامل الصناعية، ومنشآت النفط، بعد فترة قصيرة إلى مجموعات معارضة ممولة من قبل إيران. ضمت الدول المستهدفة بتكتيكات إيران الجديدة (الكويت، والبحرين، والسعودية) تجمعات شيعية كبيرة. مثّل حزب الدعوة، الذي شكل جزءًا من التحالف الحاكم في عراق ما بعد صدام، أداة للإرهاب الإيراني في الكثير من الحالات. لا يقصد بذلك الإشارة إلى المفارقة المتمثلة في تمكين الولايات المتحدة عميل الإرهاب الإيراني، بل لإظهار أن حماسة إيران الثورية تلاشت سريعًا، مما دفعها إلى الاعتماد على ما لم يفشل من التكتيكات الإرهابية في الإطاحة بالأنظمة الحاكمة فحسب، بل وتحسين موقفها أمام المجتمع الدولي كذلك[4].

لم تحقق سياسة إيران الخارجية الثورية أيًا من أهدافها، بحلول وفاة الخميني في العام 1989. لم تفشل محاولة طهران لتصدير ثورتها فحسب، بل دفعت دول الخليج كذلك للتصلب في مواجهتها. قطعت دول إقليمية بارزة، كالسعودية، علاقاتها الدبلوماسية مع الجمهورية الإسلامية، بينما وضعت الدول عداواتها التاريخية جانبًا، لتتوحد في مجلس التعاون

الخليجي، المنظمة التي كرست نفسها، إلى حد كبير، لاحتواء النفوذ الإيراني. عزز الملوك والأمراء العرب، بالتناغم مع ذلك، علاقاتهم الأمنية مع الولايات المتحدة بصورة إضافية، ومولوا جيش صدام حسين بسخاء في حربه مع إيران. انحصرت الثورة المتجاوزة للحدود، كما كان باديًا، ضمن حدود إيران ذاتها.

تمثل تسعينيات القرن المنصرم إحدى أكثر مراحل تحول الجمهورية الإسلامية أهمية. صرف انتهاء الحرب الطويلة مع العراق، ووفاة الخميني، بصورة مفاجئة، التركيز عن المخاطر الخارجية إلى معضلات إيران الداخلية. أسهم شبح الجيوش العراقية الغازية في توفير قدر كبير من التناغم السياسي، ومكن النظام من تحريك الجماهير خلف دعواته إلى المقاومة الوطنية. تمكنت الدولة، بالنظر إلى سلطة الخميني المطلقة، وسيطرته على مخيلة الجماهير، من صرف الانتباه عن مشكلاتها الداخلية، واحتواء النقمة الشعبية. باتت أسس شرعية النظام وسلطته بحاجة إلى التغيير الآن، وتعين على الجمهورية الإسلامية توفير أسباب منطقية لحكمها، بما يتجاوز نطاق الغزو الكارثي لأراضيها، والدعاوى الأخلاقية لمؤسسها.

بدأ حكام إيران البراغماتيون الجدد بقيادة رفسنجاني، استنادًا إلى ما سبق، في البحث في ترتيبات أمنية إقليمية تضمن استقرار الخليج بواسطة أنظمته المحلية، بعيدًا عن تدخل القوى الخارجية. رأى رجال الدين في إخراج صدام من الكويت ونزع مخالبه، في العام 1991، فرصة ذهبية لفرض هيمنتهم على المنطقة. دعت طهران في تلك الفترة إلى تعاون اقتصادي وأمني أكبر، عوضًا عن تحريض الشيعة، ودعوة الجماهير

لمحاكاة نموذج إيـران الثوري. توقف نجاح تلك الطموحات، بكل الأحوال، على انسـحاب القوات الأمريكية. كان من شأن ذلك تقديم المنطقة لإيران على طبق من فضـة، بالنظر إلى تفوق طهران الواضـح، وتحجيم الوجود الأمريكـي، وحدوث شـرخ دائم بين العـراق ودول الخليـج العربي. تمثلت مشكلة ذلك الطرح الوحيدة في رفضه بشكل جوهري من قبل دول الخليج، بعـد أن أكد لها غزو الكويت خطورة الاعتماد على أنظمة محلية مسـتبدة لضمان أمنها[5].

تعارضـت حيلة إيران الجديدة في الجوهر مع ما اتبعته دول الخليج مـن تكتيكات للحفاظ على بقائها. نظـرت دول الخليج، بما ينتابها من قلـق دائم حيال مخططـات جيرانها الأقوى والأكثر سـكانًا، إلى نزعة طهران لإقامة أمن جماعي بعين الخشية. لم يكن الأمراء المحليون على اسـتعداد لقطع العلاقات مع الولايات المتحدة مـن أجل إيران، بالرغم مـن إقامـة علاقـات دبلوماسـية وتجارية معهـا، وما طرأ من تحسـن على تلك العلاقات. سـعى أولئك، بما ينسـجم مع مواقفهم التاريخية، إلى طلـب الحمايـة من القـوى الخارجية ضـد الطامعـين في ثرواتهم ومواردهم من دول الجوار. ارتفع مستوى التعاون الدفاعي بين الولايات المتحدة وأنظمة الخليج بشكل ملحوظ، في أعقاب حرب الخليج الثانية، مع احتواء أمريكا العراق، وفرضـها منطقة حظـر الطيران من قواعد عسـكرية في السـعودية والكويت. اسـتقطبت راديكالية إيـران الثورية دول الخليـج في ثمانينيـات القرن المنصـرم، بينما أدى إصـرارها، في التسعينيات، على انخراط تلك الدول في معارضة الوجود الأمريكي إلى إثارة جو من التوتر والانقسام.

لجأت إيران إلى الإرهاب مجددًا بعد سقوط طروحاتها. إن رفض قادة الخليج قطع علاقاتهم مع الولايات المتحدة، فلربما دفع العنف الموجه ضد القوات الأمريكية واشنطن إلى الانسحاب طواعية من المنطقة. مثّل الخروج الأمريكي من لبنان، بالنسبة لنظام رجال الدين، والكثير من دول الشرق الأوسط، في أعقاب تفجير مقر المارينز في العام 1983، إشارة إلى عدم استعداد الولايات المتحدة لتحمل ذلك القدر من الخسائر، وإمكانية إجبارها على الانسحاب إن تعرضت لعمل إرهابي مؤثر آخر. لم يرق وجود القوات الأمريكية في السعودية للملالي على الإطلاق، بينما نأت الرياض بنفسها عن التملق الإيراني. اتهمت واشنطن طهران بالوقوف وراء تفجيرات أبراج الخبر، حيث يقطن موظفون عسكريون أمريكيون، في العام 1996[6]. ينطوي ذلك الاتهام على قدر من المصداقية، بالنظر إلى سياسة إيران الضاغطة باتجاه خروج القوات الأمريكية عبر استخدام العنف. فشلت إستراتيجية العنف الانتقائي الإيراني مجددًا، كما حدث في السابق، في تحقيق طموحاتها.

لم يتمكن رفسنجاني وحلفاؤه البراغماتيون، في نهاية المطاف، من إضفاء الانسجام بشكل جوهري على علاقات إيران مع جيرانها. تخلصت الجمهورية الإسلامية بالفعل، مما لا شك فيه، من قدر كبير من راديكاليتها الثورية، وبدأت الظهور بمظهر الدولة الحكيمة التي تبني سياساتها وفق حسابات المصالح القومية الحذرة. أسهمت علاقات طهران المتوترة مع الولايات المتحدة، مع ذلك، وإصرارها على معاداة دول الخليج لواشنطن على حد سواء في تقويض بادرات حسن النوايا الإيرانية. قضت إيران بصورة جوهرية، ما إن عادت إلى توظيف الإرهاب بما لا يدعو للاستغراب على إمكانية بروزها بوصفها لاعبًا أساسيًا ضمن جوارها المباشر.

ترافقت أهم التغيرات في سياسة إيران الإقليمية مع انتخاب الرئيس الإصلاحي محمد خاتمي في العام 1997. تطور منظور خاتمي الدولي، كما رأينا سابقًا، بفعل الجدالات والمداولات السائدة ضمن دوائر إيران الفكرية. شعر الكثير من المفكرين ورجال الدين المعارضين بالقلق حيال جمود سياسة إيران الخارجية، وعجزها الواضح عن الاستجابة إلى الحقائق الدولية والإقليمية المتغيرة. لم تقتصر الرؤية الإصلاحية على إخضاع الثيوقراطية لقدر أكبر من المحاسبة من قبل مواطنيها فحسب، بل وإنهاء حالة النبذ والعزلة التي تعيشها الجمهورية الإسلامية، ودمجها ضمن المجتمع الدولي. اعتمد خاتمي، كما في إصلاحاته السياسية على عمل المفكرين خارج بنية السلطة المتحجرة المتعنتة.

أدرك خاتمي، فيما يتعلق بمقاربته نحو الخليج، أن المحاولات السابقة للتصالح مع الدول فشلت نتيجة إصرار إيران العقديّ على انخراطهم في معاداة الولايات المتحدة. عمل خاتمي، بشكل جوهري، على التمييز في علاقات إيران. واصلت طهران معارضة الوجود العسكري الأمريكي في الخليج، وألحت في الدعوة إلى استبدال منظومة محلية به. لم يؤدِّ رفض دول الخليج عرض إيران، بكل الأحوال، إلى اتخاذ إجراءات مضادة أو القيام بعمل إرهابي. كان خاتمي على استعداد لتطبيع العلاقات مع دول الخليج بالرغم من ارتباطها بالولايات المتحدة. تهيأت إيران، للأسباب الواقعية كافة، للعيش في خليج تحدد الولايات المتحدة توازن القوى فيه.

أيد آية الله خامنئي، في لفتة واضحة، مبادرة خاتمي. صرح خامنئي بوضوح، في خطاب أمام حشد من الشخصيات العربية في اجتماع منظمة المؤتمر الإسلامي في طهران، في العام 1997، قائلاً: «لا تشكل إيران

تهديدًا لأي بلد إسلامي»[7]. اعترف «بيان رؤية» طهران، الذي نال مباركة خامنئي، بسيادة الدول المجاورة وحرمة أراضيها، وتعهد بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لأنظمتها. يتمثل السؤال المحير في سبب التغير الجوهري في موقف خامنئي المبدئي المعادي للملوك الخليج وأمرائه. لا بد أن شعبية خاتمي الكبيرة، في أوائل مدة رئاسته، قد أثرت في المرشد الأعلى، مما دفعه لتغيير مواقفه. استشعر خامنئي الرأي العام على الدوام، بشكل أو بآخر، وبدل من مواقفه وفقًا للمزاج الشعبي، بالرغم من الحقيقة المتمثلة في عدم تأثر سلطته بالانتخابات أو الاستفتاءات. تصرف الرجل، علاوة على ذلك، ببراغماتية في أوقات متفرقة، بالرغم من نزعاته الأيديولوجية المتشددة، ولربما أحس أن عزلة إيران المتواصلة عن محيطها المباشر تضر بمصالحها. لربما رأى خامنئي، عبر التمعن في وضع المنطقة، أن انتخاب خاتمي قد وفر لإيران فرصًا معينة لإزالة الحواجز، والتصالح مع دول مهمة، كالسعودية. وفر خامنئي، الدعم الرئيس الذي كانت تحتاجه سياسة خاتمي التصحيحية.

نجحت دبلوماسية حسن الجوار التي اتبعها خاتمي، في نهاية المطاف، في إصلاح علاقات إيران مع الأنظمة المجاورة. تم التوقيع على سلسلة من الاتفاقات التجارية، والدبلوماسية، والأمنية بين الجمهورية الإسلامية ودول الخليج. نجح خاتمي أخيرًا، عبر القيام بذلك، في تجاوز إرث الخميني، واستبدال سياسات مصلحية مغرقة في براغماتيتها بعدائه الأيديولوجي. تمثل تلك التركة الثقيلة التي خلفها مؤسس الجمهورية الإسلامية المفرط في عدائيته، لمن حكم بعده من (الرجعيين)[8].

تلوح مخاطر كبيرة في الأفق، في يومنا هذا، بينما تعزز حكومة المتشددين الحالية من سلطتها، وتصرح علانية برغبتها في العودة إلى جذور الثورة. يعتقد كل من صناع السياسة الأمريكيين ونظرائهم الأوروبيين، على ما يبدو، أن النظام الجديد سيلجأ للعنف والإرهاب مجددًا، بغية الإطاحة بالأنظمة المجاورة وتصدير الثورة. تتجاوز تلك التحذيرات واقع إيران في الحقيقة. تغيرت سياسة إيران بشكل جذري، فيما يتعلق بالخليج، في عهد خاتمي، وتمحورت بشكل رئيس حول الحفاظ على مصالحها القومية. تدار سياسة إيران الإقليمية، بغض النظر عن توازن القوى بين المحافظين والإصلاحيين، وفق مبادئ محددة تشترك جميع نخب البلاد السياسية بها.

سيسود ذلك المنطق بالرغم من الانتقال الأخير للسلطة في إيران. التزم الرئيس الجديد أحمدي نجاد حدود سياسة إيران الدولية الحالية، فيما يتعلق بالخليج العربي، بالرغم من تصميمه، وحلفائه على إلغاء الحريات الاجتماعية والثقافية التي تمتع الإيرانيون بها إبان حكم الإصلاحيين. عكس الرئيس أحمدي نجاد ـ في خطابه أمام البرلمان، في آب/ أغسطس 2005، لتسليط الضوء على توجهاته ـ الإجماع السائد في إيران، مشيرًا إلى أهمية العلاقات البناءة مع «دول العالم الإسلامي، ومنطقة الخليج العربي، ومنطقة بحر قزوين، وآسيا الوسطى»[9]. تم التأكيد على ذلك أيضًا من قبل علي لاريجاني، أمين المجلس الأعلى للأمن القومي، والشخصية الأكثر تأثيرًا فيما يتعلق بشؤون السياسة الخارجية[10]. لم تلجأ إيران أحمدي نجاد، على النقيض مما حدث في الثمانينيات، إلى الإرهاب للإطاحة بدول الخليج، ولم تُعد تفعيل علاقاتها مع منظمات الخليج الإرهابية، بغية إحداث تغييرات سياسية.

لا يرغب القوميون المتشددون، بعد سيطرتهم على السلطة التنفيذية، في الإساءة إلى العلاقات المتطورة التي أنتجتها الحقبة الإصلاحية السابقة مع دول الجوار، بالرغم من افتراقهم عن خطاب «حوار الحضارات» الذي تبناه أسلافهم، وتشكيكهم المعلن في الولايات المتحدة. يبدو أن الإيرانيين قد تجاوزوا إرث الخميني أخيرًا، فيما يتعلق بالخليج، وأجمعوا على التعامل مع شؤونه ببراغماتية واضحة.

المحور الثاني: المشرق العربي

مثلت سياسة الجمهورية الإسلامية تجاه المشرق العربي أحد أكثر الجوانب الأيديولوجية لعلاقاتها الدولية ثباتًا. تمثل المحور الرئيس لمقاربة طهران تجاه تلك المنطقة في معارضتها الشديدة لإسرائيل، والجهود الدبلوماسية لتطبيع العلاقات بين الدولة اليهودية وجيرانها. كرست إيران سياستها الأيديولوجية المتشددة عبر عدد من المناحي الإستراتيجية (دعم جماعات مسلحة كحزب الله على سبيل المثال)، وهو ما منحها القدرة على التأثير في سياسات المشرق المباشرة، ورفع صوتها عاليًا فيما يفترض أن يكون خارج نطاق سيطرتها من مداولات. تملك إيران الحرية في اتباع سياسة طائشة مؤذية في المشرق البعيد، على النقيض من الخليج العربي، حيث يفرض الموقع الجغرافي التصرف بواقعية؛ حفاظاً على الاستقرار. تحالفت إيران، بالتناغم مع ذلك، مع النظام السوري الراديكالي الذي يشاركها العداء لإسرائيل، بينما نأت بنفسها عن مصر، الدولة الرئيسة التي سعت في الكثير من الأوقات إلى إيجاد حل للصراع العربي الإسرائيلي. لا يرجح جنوح طهران إلى براغماتية مماثلة لتلك التي اتبعتها في الخليج، بالنظر إلى قدم سياستها حيال المشرق العربي، وتمحورها حول العداء لإسرائيل.

يمكن للزيارات الرسمية المتبادلة على أعلى المستويات، والكم الكبير من الاتفاقات الموقعة بين سوريا وإيران، أن تعطي الانطباع بوجود تحالف وثيق بين البلدين، واشتراكهما في الرؤية والأولويات. يمكن اعتبار العلاقة بين البلدين بأفضل الأحوال، مع ذلك، بمنزلة تحالف مصلحة يقوم على مخاوفهما المشتركة. تلاقت عداوة إيران المستمرة تجاه إسرائيل، طيلة العقدين السابقين، مع الرغبة السورية في ممارسة الضغوط على الإسرائيليين لاستعادة الأراضي المحتلة في العام 1967. تنطلق سوريا من حسابات إستراتيجية مجردة، بينما تستند سياسة إيران إلى توجهات إسلامية. قد ترى طهران في حزب الله قوة إسلامية طليعية تقاتل «الكيان الصهيوني»، بينما لا يمثل في نظر دمشق سوى ورقة أخرى للضغط على إسرائيل. تبدو إمكانية الخلاف بين البلدين كبيرة. يمكن أن تقبل سوريا، اتفاقية تعترف بموجبها بإسرائيل مقابل استعادة مرتفعات الجولان، بينما ترفض إيران ذلك بالنظر إلى استناد عدائيتها الأكثر أيديولوجية إلى ما هو أعمق من مجرد تسويات إقليمية[11].

يشكل العراق كذلك، بما يتجاوز مسألة إسرائيل، مصدر انقسام محتمل بين سوريا وإيران. اشترك البلدان في معاداة صدام حسين إبان فترة حكمه. أدان حزب البعث السوري انشقاق جناحه العراقي منذ زمن طويل، واعتبر نفسه الممثل الشرعي للاشتراكية العربية. تقاسم ملالي إيران غايات النظام السوري المغرقة في علمانيتها، بعد أن ناصبوا صدام العداء ذاته نتيجة حربهم معه. تدل بعض المؤشرات مجددًا على إمكانية فشل الحلف العربي الإيراني الوحيد في الصمود أمام سياسات الشرق الأوسط المتغيرة. لا ترغب سوريا، على النقيض من الثيوقراطية

الإيرانية، في تمكن القوى الدينية ـ لا سيما اللاعبون الشيعة ـ بصورة أكبر في العراق. تنظر سوريا العلمانية التي خاضت حربًا بلا هوادة ضد إسلامييها، بعين القلق إلى بروز الأحزاب الدينية في العراق. أملت سوريا، كمعظم ملكيات وجمهوريات المنطقة أن تؤدي الإطاحة بصدام، بطريقة أو بأخرى إلى استلام السلطة من قبل بعثي آخر يغرد ضمن سرب الكتلة العربية العلمانية. يتمثل الجانب المثير لمحنة العراق الحالية في مدى التناقض القائم بين إيران وسوريا، حيث تعمل دمشق على دعم التمرد، السني في معظمه، بينما توفر طهران الدعم للأحزاب الشيعية الحاكمة. تأمل إحدى الدولتين في زعزعة استقرار العراق عبر العنف المتواصل، بينما ترى الأخرى، في العملية السياسية التقليدية، الطريق الأفضل لتأمين مصالحها القومية.

يتمثل ما يوحد دمشق وطهران بصورة متزايدة – في مفارقة أخرى من مفارقات الشرق الأوسط – في إدارة الرئيس بوش. غدت إيران شريكًا لا يمكن الاستغناء عنه من قبل دمشق، بالنظر إلى عدم قدرة أو قابلية واشنطن للانخراط بشكل فعلي في عملية السلام العربية ـ الإسرائيلية، وصياغة اتفاقية تقبلها سوريا. أُجبر الطرفان، بفعل الضغوط القاسية الممارسة عليهما من قبل البيت الأبيض، على الاعتماد على بعضهما بعضًا في مواجهة عدوهما المشترك الراهن. يمكن أن تؤدي التطورات في المنطقة خلال بضع السنوات القادمة، إلى فك الارتباط بين الحليفين المتناقضين. ستضطر سوريا يومًا ما، في نهاية المطاف، بوصفها دولة تجاور إسرائيل، إلى القبول بتسوية إقليمية مع إسرائيل، وإنهاء نزاعها الطويل، القاصر عن بلوغ أهدافه ذاتيًا. يمكن لإيران البعيدة عن متناول الذراع العسكرية

الإسرائيلية، أن تواصل معاداتها لإسرائيل، وسياساتها الأيديولوجية الثابتة. قد لا تنظر سوريا في الوقت ذاته بعين الرضا، بوصفها دولة علمانية، إلى حلفاء إيران الشيعة الجدد في العراق، كما السعوديون والأردنيون، الذين يحذرون نهارًا جهارًا من بروز «الهلال الشيعي». سيتعين على سوريا، بينما يزداد الاستقطاب الطائفي في الشرق الأوسط، الاختيار بين تحالفها المثير للجدل مع إيران، ومصالحها المرتبطة بالكتلة العربية الأكبر.

تظل مصر مركز ثقل السياسة العربية، بغض النظر عما سيؤول التحالف السوري - الإيراني إليه. يفوق عدد سكان مصر الآن بقية دول المشرق العربي، ولا يمكن ذكر مساحة بعض دول الجوار، كلبنان والأردن، بالمقارنة معها. تعد مصر، علاوة على ذلك، الأطول عهدًا بالتحديث، ناهيك عن بنيتها الصناعية والتعليمية الأكثر اتساعًا، ونتاجها الزراعي والفكري الأكبر حجمًا. انحسر تأثير القاهرة على مر السنين، ولكن تضامن العرب استند على الدوام إلى قيادتها الفاعلة. قلل توتر العلاقات الإيرانية ـ المصرية من تأثير طهران في المشرق العربي إلى حد كبير. لا يمكن لأي تحالف مع سوريا، أو رعاية لحزب الله، التعويض عن تباعد إيران عن أكثر الدول محورية في المنطقة[12].

لم يقتصر العداء الإيراني على الولايات المتحدة إبان بواكير الثورة. لم يجسد أي من القادة خنوع الطبقة السياسية العربية، في نظر الخميني وأتباعه، كالرئيس المصري أنور السادات. تعرضت اتفاقية كامب ديفيد، التي أنهت حالة العداء بين مصر وإسرائيل، لأقسى أنواع الهجوم من قبل رجال الدين الإيرانيين. لم تمثل تلك الاتفاقية في نظرهم ابتعادًا عن

تعاليم الإسلام فحسب، بل وارتدادًا عنه أيضًا. كان السادات في نظر الخميني متعهدًا «للإسلام الزائف»، كما أثبتت اتفاقية كامب ديفيد، ناهيك عن عمالته للصهيونية. أثار استقبال السادات الحار للشاه المنفي (الذي أمضى أواخر أيامه في مصر) حنق الملالي الحاكمين بشكل إضافي. أثار احتفال طهران بقاتل السادات، بالمقابل، عبر إطلاق اسمه على أحد الشوارع الكبرى، وإصدار طابع بريدي يخلد ذكرى المناسبة، سخط النخبة المصرية الحاكمة، التي لم تكن مخاوفها من مذهب إيران الثوري بخافية في الأساس. لم يكن من السهل تجاوز ما خلفته تلك السياسات القديمة من أثر في العلاقات المصرية ــ الإيرانية. عززت أحداث لاحقة من مناخ العداء وعدم الثقة بين الطرفين[13].

صبت الحرب العراقية ـ الإيرانية مزيدًا من الزيت على نار العداء المصري ـ الإيراني. مثلت تلك الحرب في نظر القاهرة، المنبوذة من قبل العرب نتيجة صلحها مع إسرائيل، فرصة ذهبية للتأكيد على عروبتها، وترميم العلاقات مع حلفائها السابقين. بدأت مصر، بعد نشوب الحرب بفترة قصيرة، في تزويد العراق بالأسلحة، بالرغم من الحقيقة المتمثلة في تنافس البلدين عقودًا على زعامة الشرق الأوسط. هدفت السياسة المصرية، بما يتجاوز استغلال الفرصة للعودة إلى الحظيرة العربية، إلى احتواء ثورة إيران ضمن حدودها، وتأجيج حربها الطويلة مع العراق بغية إضعافها. لم تكن تلك السياسات تقل في نظر الجمهورية الإسلامية عن الانخراط في الحرب، وقد أسهمت في زيادة عداء رجال الدين للقاهرة.

لم يؤدِّ انتهاء الحرب بالضرورة إلى انفراج العلاقات بين البلدين. شهد العام 1990 اختلافًا جذريًا آخر في الرؤى بين طهران والقاهرة.

مثلت هزيمة صدام، في نظر مصر والولايات المتحدة، فرصة مواتية لحل النزاع العربي ـ الإسرائيلي، بينما ارتأت طهران دفع نموذجها الإسلامي عبرها. أخذ الإسلام المتشدد في البروز، كما كان باديًا، بالنظر إلى ما أبداه تنظيم الجهاد الإسلامي من تحدٍّ للنظام المصري، وصعود نجم حزب الله في سماء السياسة اللبنانية، وانتصار جبهة الخلاص الإسلامية في انتخابات الجزائر الديموقراطية. بدأ لواء المقاومة الفلسطينية، التي اضطلعت الأحزاب اليسارية العلمانية تاريخيًا بقيادتها، في الانتقال بصورة مطردة إلى المنظمات الإسلامية العنفية كحماس. بدأت المنطقة تعتنق رسالة الخميني أخيرًا، كما تراءى لملالي إيران. عملت الجمهورية الإسلامية بفاعلية على تشجيع حظوظ الإسلاميين المتشددين، بينما سعت الدولة المصرية إلى نشر الاستقرار الداخلي، وإقناع الدول العربية باتباع مسارها السلمي مع إسرائيل.

اندرج اتهام الرئيس المصري حسني مبارك إيران، بطريقة أو بأخرى، بنشر الأصولية في مصر والشرق الأوسط في إطار المصلحة الذاتية، ولم تعوزه المصداقية. كافحت مصر الراديكالية الإسلامية منذ زمن طويل، ولا يعد تجذر النزعة الإسلامية في المجتمع المصري بخافٍ على أحد. كان أهم الأحزاب الأصولية في الشرق الأوسط، في نهاية المطاف، الإخوان المسلمين، قد تأسس في مصر في ثلاثينيات القرن المنصرم، ليلقى التأييد تلقائيًا عبر المنطقة[14]. لا يجب أن تخفي الضجة المثارة حول المذهب السلفي الحقيقة المتمثلة في انتماء رواد فكر القاعدة، ومهندسي تكتيكاته، إلى مصر في معظمهم، بقيادة الرجل الثاني، سيئ الصيت، أيمن الظواهري[15]. كان دعم إيران لمتطرفي مصر الإسلاميين، وإن

اتسم بالتواضع كفيلاً بإدخال النظام المصري، في أوائل تسعينيات القرن المنصرم، في أتون حرب حقيقية ضد حركتهم العنفية المسلحة.

جرت محاولات لتخفيف الاحتقان مع مصر في عهد خاتمي. بدا أن مثل ذلك التطبيع لا يمثل أولوية قصوى لدى كل من البلدين. لم تسمح نضالات خاتمي الداخلية، ومحاولاته الدؤوبة للتواصل مع الولايات المتحدة، بالقيام بأي اختراق دبلوماسي آخر.. انصرف نظام مبارك، في الوقت ذاته، إلى مواجهة تحدياته الداخلية، وإحياء عملية السلام المتعثرة، مما أفقده الاهتمام، على حد سواء، في التقدم بقوة على ذلك الصعيد.

قد لا تكون العلاقة بين البلدين، في يومنا هذا، متوترة كما كانت في بواكير الثورة، ولكن الجمود يعتريها بكل الأحوال، بالنظر إلى عزوفهما عن المضي قدمًا، كما يبدو للعيان. لا يسعى نظام أحمدي نجاد المتشدد، على الأرجح، لفتح صفحة جديدة، بالنظر إلى استمرار العديد من محافظي إيران في رفض اتفاقية كامب ديفيد. عبرت صحيفة «جمهوري إسلامي» الرجعية بامتياز عن رؤية العديد من اليمينيين، قائلة: «ستؤدي إقامة أي نوع من العلاقات السياسية مع حسني مبارك إلى الذوبان في النظام الموضوع من قبل أمريكا والصهيونية في المنطقة»[16]. لن يتمكن أحمدي نجاد على الأرجح، بالنظر إلى الرؤية السائدة تلك بين قاعدة مؤيديه، من المضي قدمًا نحو علاقات أفضل، وإن تملكته الرغبة في ذلك.

أدركت الجمهورية الإسلامية أخيرًا، بعد سنوات من اعتناق الراديكالية الثورية، فيما يتعلق بالخليج العربي، أنها لن تتمكن من إقامة علاقات

مقبولة مع دول الخليج إن لم تصلح ذات البين مع السعودية أولًا. يتعين على حكام إيران استيعاب الدروس الآتية فيما يتعلق بالمشرق العربي: الحقيقة المتمثلة في عدم قدرة إيران على الانخراط في الشرق الأوسط الكبير ما لم تحسن علاقاتها مع مصر. عبثية التحالف التكتيكي مع النظام السوري المحاصر، ورعاية المنظمات (الإرهابية) كحزب الله، فيما يتعلق بتسهيل التواصل مع العالم العربي. يمكن لطهران استخدام العنف والإرهاب لتسليط الضوء على مطالبها، وعرقلة مبادرات السلام بين إسرائيل والعرب، ولكنها ستكون بحاجة إلى ما هو أكثر إيجابية من الأجندات -عوضًا عن رفع الشعارات الإسلامية المصطنعة، ومعاداة الدولة اليهودية- إن أرادت التأكيد على نفوذها في المنطقة. يتمثل ما هو أمر وأدهى في الاستقطاب الطائفي الذي يعم الشرق الأوسط بصورة تدريجية، وتشارك إيران الشيعية فيه بشكل متزايد ضد القوى السنية المستنفرة. يمكن أن تبرز الجمهورية الإسلامية بوصفها لاعبًا مهمًا في محيطها المباشر، ولكن ذلك لن ينطبق، على الأرجح، على المشرق العربي بوصفها دولة شيعية أعجمية.

المحور الثالث: أوراسيا

اتسمت مقاربة إيران تجاه جيرانها الشماليين والشرقيين بالواقعية الدائمة، على النقيض من سياستها في الخليج والمشرق العربيين. أسهم قرب الدولة الروسية القوية، وإمكانات توقيع اتفاقات تجارية، وعقد صفقات أسلحة مهمة في إضفاء قدر من البراغماتية الدائمة على سياسة إيران. بدت الجمهورية الإسلامية، بما يدعو للاستغراب، لا مبالية على

الدوام بعذابات ونضالات مسلمي آسيا الوسطى، بالرغم من مهمتها المعلنة المتمثلة في تصدير الثورة. ارتبطت الدولة الإيرانية المحاصرة ـ بما تحتاجه من أسلحة وصفقات تجارية ـ والقوة العظمى الجريحة السابقة ـ بما تسعى إليه من ربح وفرض للذات ـ ارتبطت كلتاهما بعلاقة نفعية انتهازية، تتجاوز الأيديولوجية لحساب المصالح المادية الملموسة. لم تنحصر تلك البراغماتية في التعامل مع روسيا فحسب، بل وأفغانستان كذلك، حيث تمثلت أولوية الثيوقراطية في إرساء الاستقرار على الدوام، لا الإنقاذ الإسلامي المقدس. أجبرت النخبة الأقلية الثيوقراطية الحاكمة لإيران، بشكل جوهري، من قبل مخاوفها المتعلقة بالعزلة على الصعيد الدولي، وانتقال المشكلات الأفغانية عبر حدودها، على تجاوز توجهاتها الأيديولوجية، والتماس مصالحها الواقعية ضمن الكتلة الأوراسية الضخمة.

تمثل شعار السياسة الخارجية الإيرانية الدائم، عشية قيام الثورة الإيرانية، في «لا شرقية ولا غربية». ازدرى الخميني الشيوعية السوفييتية بما لا يقل عن الليبرالية الغربية، ولطالما هاجم الاتحاد السوفييتي السابق بأقذع العبارات. أدانت إيران الغزو السوفييتي لأفغانستان صراحة، ودعمت المجاهدين بقوة ضد الاحتلال. لاحق الملالي بلا هوادة، على الصعيد الداخلي، عناصر حزب التودة الشيوعي، وغيرهم من القوى اليسارية المنجذبة إلى النموذج السوفييتي. لم تبخل موسكو بدورها في تزويد صدّام بالسلاح، بينما شن حربه العدوانية على إيران، وكثيرًا ما دعمت العراق ضد إيران في مختلف المحافل الدولية.

لم يتجه الطرفان مع ذلك نحو المواجهة الفعلية، بالرغم من التوتر القائم بينهما تحت السطح، بالنظر إلى ارتفاع مستوى التبادل التجاري

بين البلدين باطراد، ناهيك عن التمثيل الدبلوماسي السوفييتي الفاعل في طهران. أدرك النظام الثيوقراطي، كما بدت الحال عليه، في توجه مغاير لمقاربته تجاه الولايات المتحدة، أن قربه الجغرافي من الاتحاد السوفييتي، وابتعاده عن الغرب، يتطلبان علاقة أكثر واقعية مع موسكو. اختلف الطرفان في كثير من الأوقات حول مسائل مهمة كأفغانستان والعراق، ولكن الخميني تمكن بطريقة أو بأخرى من كبت عداءاته الأيديولوجية، ومواصلة ما بدا نافعًا لمصالح بلاده من علاقات مع الاتحاد السوفييتي[17].

تبنت موسكو سياسة إقليمية جديدة عقب انهيار الاتحاد السوفييتي، في العام 1991، وبروز الاتحاد الروسي. اصطفت الدولة السوفييتية السابقة بقوة إلى جانب الأنظمة العربية الثورية، وشاركتها المخاوف فيما يتعلق بالصراع العربي ـ الإسرائيلي. اكتسبت توجهات جمهوريات آسيا الوسطى المستقلة حديثًا، وحالة اليقظة الإسلامية في تلك المنطقة أهمية أكبر، لدى سادة الكرملين الجدد، من مشكلات عملاء النظام السوفييتي السابق من العرب. أصبح استقرار الحدود الروسية الآن متوقفًا في جزء منه على امتناع طهران عن تأجيج المشاعر الإسلامية في آسيا الوسطى. بدأت روسيا، علاوة على ذلك، بالنظر إلى انحسار نفوذها بصورة مؤثرة، وحاجتها الماسة إلى العملة الصعبة، في بيع ترسانتها العسكرية لمن يدفع قدرًا أكبر من المال. مثلت إيران سوقًا مغريًا لتجار السلاح الروس، بالنظر إلى امتلاكها المال، والرغبة الشديدة في التسلح، كما تبدو الحال عليه[18].

تعين على الجمهورية الإسلامية التكيف بطريقتها الخاصة مع انهيار الاتحاد السوفييتي، وبروز آسيا الوسطى. نشرت إيران رسالتها الإسلامية،

خلال الحقبة السوفييتية، عبر موجات الأثير، بلغات محلية عدة، دون أن تتأمل الكثير من ذلك. أشبعت تلك الدعاية المحدودة حاجاتها الأيديولوجية دون توتير العلاقة مع جارها القوي. تعين على إيران الحذر عقب انهيار الإمبراطورية السوفييتية، واستقلال جمهوريات آسيا الوسطى: موازنة ما يربطها من علاقات إستراتيجية بروسيا، مع مهمتها المعلنة المتمثلة في تصدير نموذجها الثوري إلى البيئة الخصبة الجديدة. عدلت إيران من أيديولوجيتها إلى حد كبير ـ فيما يدلل على ما بلغته من حصافة ـ مؤثرة الاستقرار والتجارة على نشر رسالتها الإسلامية[19].

تجلت براغماتية إيران بأوضح صورها خلال الأزمة الشيشانية. لم يتمثل رد إيران، بينما أوغل الجنود الروس في قتل الثوار المسلمين، وقمع التمرد الإسلامي بما لا يوصف من وحشية، سوى في إصدار بيان يعدّ المسألة شأنًا داخليًا روسيًا. كان الإيرانيون يزيدون من حدة بياناتهم، في بعض الأحيان، حين يتجاوز الروس الأعراف كافة. لم تتخذ طهران، أيًا من الإجراءات العملية، كدعم الثوار، أو تشكيل جبهة إسلامية ضد سياسة موسكو. تجاهلت إيران مأساة الشيشانيين إلى حد كبير، بالرغم من البعد الإسلامي لقضيتهم، بعد أن ارتأت أن مصالحها تكمن في عدم استثارة عداء الاتحاد الروسي[20].

تميط مسألة الشيشان اللثام عن حدوث صفقة ضمنية، وإن لم تعوزها الأهمية، بين الروس والإيرانيين خلال العقد المنصرم. برزت الجمهورية الإسلامية كأكثر شركاء روسيا أهمية في الشرق الأوسط، وسوقًا مربحة لصناعاتها الدفاعية المتعطشة لاستجلاب الأموال. تتمثل الحقيقة الأكثر أهمية، بالرغم من إيلاء الطرفين اهتمامًا كبيراً بالتعاون النووي فيما

بينهما خلال السنوات الأخيرة، تتمثل فيما أبدته روسيا من استعداد لبيع إيران كميات كبيرة من الأسلحة التقليدية، كالطائرات والغواصات المتطورة. حدّت إيران، بالمقابل، من نفوذها ووجودها في آسيا الوسطى، وأحجمت عن زعزعة استقرار منطقة حيوية لأمن روسيا القومي. دفعت تلك العلاقات المميزة روسيا لمنح إيران ما لا يستهان به من دعم دبلوماسي، لا سيما عند عرض ملفها النووي في العديد من المحافل الدولية. يجدر بالولايات المتحدة، الراغبة في الحصول على الدعم الروسي لسياستها الرامية إلى عزل ومحاصرة إيران، أن تتمعن في طبيعة العلاقات بين موسكو وطهران. لا يستند الاعتقاد بمشاركة روسيا في ممارسة ضغوط اقتصادية مؤثرة على إيران، نتيجة ملفها النووي، إلى أي أساس واقعي.

تمحورت سياسة إيران تجاه أفغانستان، جارتها الشرقية، حول حسابات المصالح القومية على حد سواء. لم تكن العلاقات بين البلدين مميزة على الدوام، بالرغم مما يربطهما من أواصر لغوية وثقافية مشتركة. قاومت القبائل الأفغانية المستقلة القوية التعديات الفارسية، تاريخيًا، ناهيك عن الدفاع عن حقوقها بشراسة. يتركز حلفاء طهران التقليديون في هيرات، حيث يفرض القرب الجغرافي من إيران، والعدد الكبير من الشيعة إقامة علاقات وثيقة. لم تتعلق مسألة أفغانستان، في نظر طهران، بالتناغم الأيديولوجي، بل الاستقرار بالأحرى. اتخذت الثيوقراطية الحذر، منذ توليها السلطة، من جارتها الشرقية، على ضوء قتالها الجيش الأحمر، وصعود أصولية طالبان، والغزو الأمريكي أخيرًا. لم تشكل أفغانستان المكان الأمثل لنشر رسالة إيران الثورية، بالنظر إلى هويتها القبلية، وتنوعها الإثني، وتشكيل السنة غالبية سكانها. لم تسعَ

إيران بفاعلية ـ علاوة على ذلك، ومما يحسب لها ـ إلى تصدير نموذجها في الحكم إلى جارتها المضطربة.

استندت سياسة إيران تجاه أفغانستان، إبان فترة طويلة من ثمانينيات القرن المنصرم، إلى معارضة النظام الشيوعي، ودعم القوى المناهضة للاحتلال السوفييتي. شهد ذلك العقد، بكل الأحوال، مفارقة غريبة أخرى: تقاطع مصلحة إيران والولايات المتحدة في إعاقة المد السوفييتي في جنوب ـ غرب آسيا. وفر عدم الاستقرار الناتج عن الحرب، وتوسع النفوذ السوفييتي جنوبًا، بالرغم من محاولة الخميني عزو تلك السياسة إلى اعتبارات دينية مبررات إستراتيجية كافية لسلوك إيران. أدركت دولة رجال الدين، يوم كانت تستضيف مليونين من اللاجئين الأفغان تقريبًا، أن ليس بمقدورها تحمل تبعات هزيمة الدولة المجاورة لها[21].

تعين على إيران، بصورة مماثلة، التعايش مع سنوات حكم طالبان الممتدة. مثل النظام السني المتطرف تحديًا هائلاً للجمهورية الإسلامية، بالنظر إلى الحرب التي شنها بلا هوادة على النظام القبلي الأفغاني المعقد، والمجازر التي ارتكبها بحق الشيعة (بشكل ممنهج). كادت الحرب تشتعل بين البلدين، في صيف العام 1998، جراء قتل عشرة دبلوماسيين إيرانيين على يد قوات طالبان في مزار الشريف. اتخذت إيران الحذر، وتوجست خيفة، فيما يتعدى نطاق المواجهة الفعلية، من اعتماد نظام طالبان على تجارة المخدرات والمنظمات (الإرهابية) السنية، كالقاعدة، لترسيخ حكمه. ينتهي المطاف، في يومنا هذا، بكمية كبيرة من مخدرات أفغانستان في إيران، لتفاقم من أزمة الإدمان فيها، حيث تشير التقديرات إلى إمكانية وجود مليونين من مدمني المخدرات الإيرانيين. أصبحت إيران، بعد وقت

قصير، وبالنظر إلى تلك الحقائق، من أشد المعادين لنظام طالبان. تحظى ترتيبات الحكم القائمة في أفغانستان حاليًا (ضبط التشدد السني بشكل كبير، حكم البلاد من قبل نظام معتدل) بقبول النظام الثيوقراطي، بالرغم من وجود القوات الأمريكية في ذلك البلد منذ العام 2001[22].

لم تمر علاقات إيران بباكستان بأفضل أحوالها، في بعض الأحيان، بينما تحسنت علاقات طهران مع أفغانستان على مر السنين. نظرت إيران بكثير من القلق إلى سياسة باكستان الرامية إلى استخدام أفغانستان أداة لتكريس نفوذها في آسيا الوسطى[23]. تجاهلت إدارة بوش بوضوح، حين أعلنت باكستان حليفًا رئيسًا في «حربها على الإرهاب»، الحقيقة المتمثلة في دعم إسلام أباد طالبان، وتساهلها مع حليفها القاعدة. مثلت السياسة الباكستانية الانتهازية، المتجسدة في إطلاق يد طالبان في الشعب الأفغاني المحزون، كوسيلة لتأمين ممر إلى آسيا الوسطى تهديدًا إستراتيجيًا معلنًا لإيران. تحسنت العلاقات بين البلدين بشكل ملحوظ، منذ سقوط طالبان، بعد أن شكلت المسألة الأفغانية عنصر اتفاق بينهما. تظل إيران قلقة حول استقرار باكستان الداخلي، بما تملكه من ترسانة نووية كبيرة. تمثل إمكانية استيلاء نظام سني متشدد على الحكم في باكستان النووية، من وجهة نظر طهران، خطرًا وجوديًا حقيقيًا. تلتمس إيران الاستقرار في سياستها تجاه جارتها المتقلبة الأخرى.

قد يدهش المراقب العادي، المعتاد على تصريحات المسؤولين الأمريكيين التحريضية بحق إيران، بوصفها دولة ثيوقراطية متأدلجة، إن علم أن سياسة الجمهورية الإسلامية استندت إلى البراغماتية، تاريخيًا، في

عـدد من المناطق المهمة. تتمحور مقاربة إيـران تجاه دول الخليـج العربي، وجيرانها الأوراسـيين، في الوقت الراهن، حول حسـابات المصالح القومية المجردة من الاعتبارات الدينية إلى حد كبير. دفعت طهران، من قبل الحاجة إلى ضـمان اسـتقرار حدودها، وإدراكها أهمية علاقتها الإستراتيجية مع روسـيا، إلى التصرف باعتدال ضمن محيطها المباشر. لا ينطبق ذلك على المشـرق العربي بكل الأحوال: حرمت معارضة الدولة الثيوقراطية العقديّة لإسـرائيل سياستها من المرونة التي اتسمت بها عند التعامل مع العديد من جيرانها. سيتواصـل ذلك التناقض الصـارخ في سياسـة إيران الإقليمية، علـى الأرجح، بينما تمضـي طهـران قدمًا في اتبـاع توليفتهـا المحيرة من الراديكالية والاعتدال، البراغماتية والتحدي.

سـعت الجمهورية الإسـلامية، عنـد صـياغة سياسـتها الإقليمية، إلى المزاوجة بين جانبين متباينين للهوية الإيرانية: القومية الفارسـية، والمذهب الشـيعي. اعتبرت إيران نفسـها على الدوام الأحق بقيادة الشرق الأوسط، بالنظـر إلى حضـارتها العظيمـة، وإحساسـها العميـق بالتاريـخ. هيمنت الإمبراطوريات الفارسية قرونًا على المناحي السياسية والثقافية في المنطقة، لتشكل حسًا قوميًا بنفعية تلك الهيمنة وإيجابيتها. ما انفك الشيعة في إيران يرتابـون في جيرانهم، في الوقت ذاتـه، باعتبارهم أقلية دينية مضـطهدة. لم تغير الحقائـق المتمثلة في بروز الدول العربية، والقـوى الغربية المهيمنة، واسـتثنائية إيـران الدينية، من نظرة طهران إلى نفسـها «بوصـفها مركزًا للكـون»، مجتمـع ينبغي الاقتداء به من قبل الشـعوب العربيـة. التزم حكام إيـران المتعاقبون من ملوك ورجال دين بتلك الرؤية الذاتية القومية، وعملوا على تضخيم نظرة طهران إلى أهميتها التاريخية.

يتمثل العامل المهم الأخير، الذي فرض نفسه على توجهات إيران الدولية، في السياسة البراغماتية. قد تَعدّ إيران نفسها ضحية استثنائية لمؤامرات القوى الكبرى، وقد تملك طموحات للبروز كقائد إقليمي للمنطقة، ولكنها دُفعت، بالنظر إلى ما تملكه من موارد وقوة فعلية، إلى الكثير من إعادة التقييم، والتموضع، في أوقات مختلفة. يتمثل الجانب المثير في سياسة إيران في قدرتها على اعتناق الأيديولوجية، والتحلي بالمرونة في الوقت ذاته. يمكن أن تتخذ الجمهورية الإسلامية موقفًا لا مهادنًا في أيديولوجيته من إسرائيل، بينما تتعامل بواقعية مع خصمها التاريخي روسيا. سيواصل التضارب الحاصل بين مُثل إيران ومصالحها، طموحاتها وحدودها، في إنتاج سياسة خارجية متناقضة، تفتقر إلى الانسجام في الكثير من الأحيان.